دراسة سورة

يس

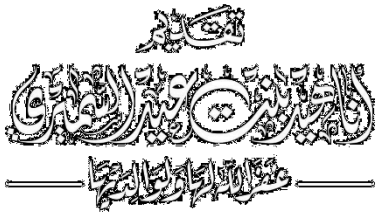

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنّة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. نبدأ اللقاء الرابع في سلسلة لقاءات سورة يس، وبدأنا بمناقشة مطلع هذه السورة المباركة، ووصلنا إلى قوله تعالى: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} وبقي معنا هنا سؤال، ما نوع ما؟ وهذا نموذج لما ناقشناه سابقًا أننا في التفسير نعرف معنى الكلمة ونعرف معنى حروف المعاني.

الآيات فيها وظيفة النبي ﷺ، وهي أنه أرسل كما أرسل المرسلون {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، ومن طرق دراستنا للسورة النظر للكلمات المتكررة من مادة واحدة، مثل الإرسال في سورة يس، كم مرة وردت كلمة (مرسلون) أو من نفس المادة؟ على الأقل نأتي بموضع واحد ورد في السياق قريبًا من {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)}:

1. {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13)}.

2.{إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (14)}.

3.{قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16)}.

4.{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20)}.

5.{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30)}.

6.{قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)}.

ثم أتى وصف للنبي ﷺ ولطريقه الذي يرشد إليه {عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، وأتت إشارة لهذا الدين العظيم أنه {تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}، لأجل ماذا؟ ما الوظيفة التي يقوم بها الرسول؟ {لِتُنْذِرَ قَوْمًا} ، ما صفتهم؟ {مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ}، نفكر في معنى {مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ}:

اتفقنا أن (ما) كما ذكر المفسرون يمكن أن تكون:

١- نافية.

٢- موصولة.

٣- مصدرية.

- إذا كانت (ما) نافية يكون المعنى: لتنذر قومًا لم يُنذر آباؤهم، لأنهم من أهل الفترة التي فتر فيها الوحي، وهذا المعنى واضح جدا، وهو الذي يتبادر للذهن.
- وإذا كانت موصولة فالمعنى: لتنذر قومًا الذي أنذر آباؤهم، يعني نفس المحتوى الذي أنذر به الآباء، فستكلمهم عن التوحيد والقيامة ولقاء الله، فهم غافلون عن ما الله فاعل بأعدائه المشركين، من إحلال نقمته، وسطوته بهم.
- وإذا كانت مصدرية فالمعنى: لتنذر قوما إنذارَ آبائهم، يعني نفس عملية الإنذار.

الأشهر في كلام العلماء أنها نافية أو موصولة، والأقرب أنها نافية، وقد اختاره صاحب أضواء البيان: قيل نافية، وهو الصحيح.

ما الذي يؤيد هذا الاختيار؟ ما ورد في كتاب الله في سورة السجدة، خصوصًا أن السجدة من السور السابقة لسورة يس، سنجد الدليل في مطلع السورة: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}، هذه واضحة جدًّا في تأييد معنى النفي، والله أعلم، مع أن المعنى الثاني مقبول وله بيانه.

ومن هنا نفهم لماذا يحصل اختلاف عند المفسرين، وفي كل اختلاف فائدة، إلا أن الوقت لا يسمح بالكلام عن فائدة هذا الاختلاف، وكيف أن تفسير (ما) بأنها موصولة بمعنى (الذي) له بُعد ودلالة أخرى، وهذا يحتاج إلى مناقشات.

نصل إلى {فَهُمْ غَافِلُونَ}، هؤلاء القوم مجتمعين، سيأتي النبي ﷺ لينذرهم، ثم يقول لنا رب العالمين {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} عن هذا الإنذار.

هل هذا الإنذار الذي وصلهم بعد ما وصلهم كانوا غافلين أو قبل أن يصلهم؟

هؤلاء لم ينذر آباؤهم {فَهُمْ غَافِلُونَ}، نقرأ التفسير ونرى ما يقول المفسرين، ونبدأ بالسعدي:

فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال: (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن

لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فنعمة الله به على العرب خصوصا، وعلى غيرهم عموما. ولكن هؤلاء الذين بعثت فيهم لإنذارهم بعدما أنذرتهم، انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ).

واضح أنه يقول أنه قبل. نقرأ ابن عاشور:

(فَهم غافِلُونَ) أيْ فَتَسَبَّبَ عَلى عَدَمِ إنْذارِ آبائِهِمْ أنَّهم مُتَّصِفُونَ بِالغَفْلَةِ وصْفًا ثابِتًا، أيْ فَهم غافِلُونَ عَمّا تَأْتِي بِهِ الرُّسُلُ والشَّرائِعُ فَهم في جَهالَةٍ وغَوايَةٍ إذْ تَراكَمَتِ الضَّلالاتُ فِيهِمْ عامًا فَعامًا وجِيلًا فَجِيلًا.

فَهَذِهِ الحالَةُ تَشْمَلُ جَمِيعَ مَن دَعاهُمُ النَّبِيءُ ﷺ سَواءٌ مَن آمَنَ بَعْدُ ومَن لَمْ يُؤْمِن.

والغَفْلَةُ: صَرِيحُها الذُّهُولُ عَنْ شَيْءٍ وعَدَمُ تَذَكُّرِهِ، وهي هُنا كِنايَةٌ عَنِ الإهْمالِ والإعْراضِ عَمّا يَحِقُّ التَّنْبِيهُ إلَيْهِ

أنت تقول عن شيء أنك غافل عنه لا بد أن تكون تعرفه فحصلت غفلة عنه، غافلون عن شيء غير مغفول عنه، هم ليسوا بجاهلين، لكنهم غفلوا عن شيء.

مداخلة: ما هي الغفلة ومعانيها ، مفهوم الغفلة ومعناها:

الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

والغفلة: متابعة النفس على ما تشتهيه.

والغفلة: غيبة الشّيء عن بال الإنسان، وعدم تذكّره له.

والغفلة عن الشيء: نسيانه، وإهماله، والإعراض عنه. (الألوكة)

ممكن بقصد او دون قصد. نعم صحيح

لما وصف الله المؤمنات في سورة النور قال الغافلات. صحيح

فكر بالآية وأنت مستصحب لمعاني الغفلة..

مسألة الفطرة، قد يكون حتى آبائهم غافلين، فقد نفينا إنذار الآباء، لكن أليسوا هم وآباؤهم خلقوا على الفطرة، ومن الفطرة البحث عن الحق. والفطرة موضوع مهم هائل واساسي في كل المحاجات.

في تاريخ قريش نفسهم، لو تذكرنا قصة زيد بن عمرو بن نفيل، أو قصة ورقة بن نوفل، كل هذا يدلنا على أن الإنسان بطبيعته في داخله فطرة توصله إلى طلب الحق، لكن لن يترتب العذاب إلا بعد بعثة الرسول، {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا}، هم غافلون عن شيء موجود في نفوسهم؛ حاجتهم لربهم، فقرهم له، الدلائل كلها تدل على رب العالمين، الدلائل كلها تدل على وجوده، بالإضافة إلى أن هؤلاء القوم كانوا حول

الكعبة التي ترمز إلى ملة إبراهيم، إذن هم متصلون بملة إبراهيم، التي منها فخرهم وعزهم.

مثلا قصة إسلام معاوية رضي الله عنه، يشار أنه كان يكتم إسلامه من أبيه، يُذكر أن معاوية رضي الله عنه كتم الإسلام إلى أن جاء الفتح وهذا يشير إلى أن الأمر مقبول في النفوس لكن الخوف من ترك دين الآباء منعه، الخوف من المصادمة، كل هذا يمكن أن يجعل الإنسان في لحظات يأخذ قرارات خاطئة. أحيانا يكون هذا الإنسان واضح له الحق لكن توجد أعباء تترتب على أخذه للحق ومن ثم يترك الحق لأجل هذه الأعباء.

{فَهُمْ غَافِلُونَ} بمعنى أنهم ما أعطوا نفسهم الفرصة الكافية للتفكير والاهتمام بهذا الموضوع، هؤلاء ما أنذر آباؤهم فما أعطوا هذا الموضوع اهتمامهم مما سبب الأمر القادم. قارن بين موقف ورقة بن نوفل رضي الله عنه وبين موقف أحد من كفار قريش مثل أبو لهب، ما الفرق في موقفهم؟

ورقة بن نوفل رضي الله عنه لم يكن غافلا عن شأن الدين ويوم القيامة وحقيقة الدنيا، فلما أتى النبي ﷺ وجاءه الخبر ما كان منه إلا التصديق، بل تمنى أن يكون شابا ليس ليعيش

الانتصار، إنما من أجل أن يكون مع النبي ﷺ لما يخرجه قومه.

لأن عندنا مشكلة دائما أننا نريد أن نكون موجودين في ساعة الانتصار، لكن في ساعة البذل الناس مختلفين. تصور أنه من شدة يقظة ورقة بن نوفل أنه يريد أن يكون موجود في ساعة الشدة، لأنه يريد أن يبذل لله، ويريد أن يكون شابا لتكون قوته موجودة للبذل، فهو ليس غافلًا عن هذا الأمر؛ مهتم. هذا الشيء تلاحظه إذا حصل وخاطبت الناس، وعرضت على أحد حق، لما يكون متنبها له، ليس غافلا ويفكر فيه، أول ما تكلمه ينفعل مباشرة، لأن الأمر على باله، يفكر فيه، يشغله.

وهذا الأمر يتضح لما تعطي أحد معلومة ويكون فكر تجد الفرح والاندهاش واضح في عينيه أن هذا الأمر حيره ووجد إجابته، ولما يكون غافل، حتى لو أعطيته درة من الدرر لا تجده يعطيه اهتمام.

مثلا واحد يعرض بضاعته في السوق وأنت تمر عليه، مثلما يحصل للناس وهم في مكة وهم في العمرة وهم داخلين للسكن يمرون على الأسواق، تجد من يقول هذه بخمسين، لكن لك بأربعين أو بثلاثين، هذا ليس شاغلك وهو يخفض السعر، وأنت

لا يهمك أن تشتري من هذه البضاعة، الغافل حتى لما يعرض عليه الحق ليس موضوعا له، ولا يفكر فيه.

في موقف مع مجموعة من النساء اليابانيات -الذين يُمدحون بالتفكير- ليعرضوا عليهم الإسلام، وعلى أن نبدأ بالربوبية لنصل للألوهية، بعد أن تكلمنا عن الشمس والأرض والسماء.. وكل ما استحضرناه مع المترجمة، قالوا لماذا نفكر على ماذا يدل شروق الشمس وغروب القمر، لماذا نتعب أنفسنا لنفكر في هذا! هذا هو المقصود بالغفلة لأنه سيترتب عليها الكلام القادم.

الغافل يُستعمل لإنسان ما أعطى هذا الموضوع اهتمامه، أما الإعراض فيأتي بعد عرض الحق. الغفلة تعتبر صفة ذم، لأنه موضوع مهم كان عليك أن تهتم به وما فعلت فغفلت، أما الإعراض يصبح الأمر أكبر. الغافل كان المطلوب منه أن يفكر في الحق قبل أن يعرض عليه الحق، لما يعرض عليه الحق وهو غافل ستكون مشكلة.

ركزنا على كلمة غافل لنتصور أننا يمكن أن نعيش أزمة ولا نشعر بها، لأننا غافلين عما يستقبل من الحياة، غافل عما سيلقاه في الموت، غافل عن حياة حقيقية ستأتيه.. هذه الغفلة تجعل

الإنسان لما تأتيه الفرص فتضيع عليه بسبب غفلته، وهذه أزمة، أن تكون عندك فرصة وتضيع عليك.

{فَهُمْ غَافِلُونَ} عن هذا الإنذار بسبب ما يعيشوه من شهوات وأماني فهم لم يعطوا هذا الموضوع حقه.

لما جاءهم النذير ماذا فعلوا؟ هذه الغفلة استمرت مع البعض وكانت النتيجة التي سنناقشها، والبعض الآخر فاستفاد من النذير واستفاق من غفلته وسيأتينا كيف حصل هذا.

لا زلنا في سياق الكلام عن تثبيت النبي ﷺ {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أنت من المرسلين وما أتيت به هو الصراط المستقيم، وظيفتك الإنذار ووصف الناس أنهم ترسخوا في الغفلة وأنت تريد أن تناقشهم {فَهُمْ غَافِلُونَ} لما تعرف هذا سيكون عليك أمر مهم.

{فَهُمْ غَافِلُونَ} ترسخوا في الغفلة، ولما يترسخون في الغفلة معناها أنه لزمن طويل لم يتكلم أحد في هذا الموضوع ولم ينكر الحياة ولم يعدل في هذا الوضع، النتيجة أن هذا الباطل يصبح كأنه قانون، كأنه طريقة حياة. في مقابل لو كان المجتمع يسمع هنا وهنا، ويتوالى عليه الأمر هنا وهنا ولا يسكت الناس عن إنكار المنكر وبيان المعروف وهذا يتكلم وهذا يتكلم، إذا حصل

هذا يسهل على الآذان أن تنصحهم، لكن لما يصبح المنكر مع الغفلة كأنه هو أسلوب الحياة يصبح الأمر صعب!

لذا لما نتصور وظيفة النبي ﷺ أن يأتي لمجتمع أصبح الباطل مؤسس عندهم، بمعنى أنهم يرون هذا الباطل هو النظام، تصور كيف سيكون بذل النبي ﷺ وكيف ستكون غربته ﷺ لذلك كان من كلامه ﷺ أنه أوذي في الله ولم يؤذ أحد، وخوف في الله ولم يخوف أحد كما في الحديث "لقد أُخِفتُ في اللَّهِ وما يُخافُ أحدٌ. ولقد أوذيتُ في اللَّهِ وما يُؤذى أحدٌ" بدأ في أول الدعوة وحدة، بدأ في وقت لم يؤذ أحد لأنه كان منفردا، وكان هو فقط الذي يخاف في الله.

وكأنك تتصور هذا واقع سورة يس؛ انفراد النبي ﷺ وبعض الأصحاب القلة الذين يؤيدونه، سنرى قصة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى وسنرى إشارة هذا الرجل إلى أصحاب النبي ﷺ وإلى أبو بكر خاصة.

ثم يخبرنا عز وجل عن هؤلاء القوم الغافلين لما جاءهم الحق، ماذا فعلوا؟

{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7)}

نحاول أن نبين هذه الآية بما يشفي الصدر في فهم مثل هذه الآية العظيمة.

نقرأ تفسير أبو السعود في هذه الآية، ويعتبر من أسهل التفسيرات في هذه الآية، تصور أنه يوجد قول وحق على أكثرهم، هذا القول أصبح حقا لأكثرهم:

(لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلى أكْثَرِهِمْ) جَوابُ القَسَمِ، أيْ: واللَّهِ لَقَدْ ثَبَتَ وتَحَقَّقَ عَلَيْهِمُ البَتَّةَ لَكِنْ لا بِطَرِيقِ الجَبْرِ - مِن غَيْرِ أنْ يَكُونَ مِن قِبَلِهِمْ ما يَقْتَضِيهِ - بَلْ بِسَبَبِ إصْرارِهِمُ الِاخْتِيارِيِّ عَلى الكُفْرِ والإنْكارِ، وعَدَمِ تَأثُّرِهِمْ مِنَ التَّذْكِيرِ والإنْذارِ، وغُلُوِّهِمْ في العُتُوِّ والطُّغْيانِ، وتَمادِيهِمْ في اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيْطانِ بِحَيْثُ لا يَلْوِيهِمْ صارِفٌ، ولا يُثْنِيهِمْ عاطِفٌ كَيْفَ لا؟!

ما هو القول؟ والمُرادُ بِما حَقَّ مِنَ القَوْلِ قَوْلُهُ تَعالى لِإبْلِيسَ عِنْدَ قَوْلِهِ: (لأُغْوِيَنَّهم أجْمَعِينَ): (لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنهم أجْمَعِينَ) وهو المَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ تَعالى: (لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنّاسِ أجْمَعِينَ) هذا هو القول الذي قاله الله عز وجل على إبليس لما قال لأغوينهم أجمعين، القول الذي حق هو قول الله،

أول ما يجب أن نركز عليه ما هو القول الذي هو حق، سنجد معاني أخرى لكن سنركز على هذا التفسير لنفهم ثم نرتب عليه أي شيء آخر. ما معنى حق؟

ثبت وتحقق عليهم. عرفنا ما هو القول وأن هذا القول ثبت عليهم، كأن مدار الآية على أنه يوجد قول وقد تحقق وثبت عليهم، هذا القول قاله رب العالمين وقد تحقق وثبت عليهم، القول {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ} مقابل قول إبليس {لأُغْوِيَنَّهم}.

صيغة الآية {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ} اللام هنا هي اللام الموطئة للقسم، تدل على أن هناك قَسَم محذوف، لذلك لما فسرها قال والله {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ}، لقد كأن فيها قسم، كأنك تسمعها والله لقد حق القول، هذه الجملة أكدت بمجموعة مؤكدات، اللام التي تدل على القسم وقد التي تدل على التحقيق، قال: أيْ: واللَّهِ لَقَدْ ثَبَتَ وتَحَقَّقَ عَلَيْهِمُ البَتَّةَ.

الآية فيها مجموعة مؤكدات: القسم المحذوف واللام وقد. كل هذا التأكيد على أنه {حَقَّ الْقَوْلُ} وجب، وقع، والقول أنهم استحقوا هذا، وهو يفهمنا أن استحقاق أن يكونوا في جهنم ليس بطريق الجبر، بَلْ بِسَبَبِ إصْرارِهِمُ الِاخْتِيارِيِّ عَلى الكُفْرِ والإنْكارِ، وعَدَمِ تَأثُّرِهِمْ مِنَ التَّذْكِيرِ والإنْذارِ، وغُلُوِّهِمْ في العُتُوِّ

والطُّغْيانِ، وتَمادِيهِمْ في اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيْطانِ بِحَيْثُ لا يَلْوِيهِمْ صارِفٌ، ولا يُثْنِيهِمْ عاطِفٌ، لا شيء يتحرك فيهم فهم مصرون. لا إشكال هنا، تحقق القول بأن الله سيملأ منهم جهنم متى ما هم قبلوا إغواء الشيطان فهم من تسبب لنفسه أن يتحقق فيهم القول.

لما نضع شروط على دخول دورة، ونقول من غاب ثلاث مرات من أصل عشرة لا يدخل الاختبار، من كان عدد غياباته أربع يستحق أن يطبق عليه الشرط، السبب واضح وأنت حق عليك هذا الشرط.

هم اختاروا أن يسيروا هذا السير، وهذا المعنى مهم جدا لأجل ألا يأتي لأحد شبهة الجبر وأنك مجبور، مناقشة علم الله شأن، ومناقشة عمل العبد شأن آخر، أنت المطلوب منك أن تحقق الشروط لئلا يحق عليك هذا القول. فهم لا يؤمنون بسبب إصرارهم.

كَما يَلُوحُ بِهِ تَقْدِيمُ الجِنَّةِ عَلى النّاسِ، فَإنَّهُ - كَما تَرى - قَدْ أوْقَعَ فِيهِ الحُكْمَ بِإدْخالِ جَهَنَّمَ عَلى مَن تَبِعَ إبْلِيسَ، وذَلِكَ تَعْلِيلٌ لَهُ بِتَبَعِيَّتِهِ قَطْعًا، وثُبُوتُ القَوْلِ عَلى هَؤُلاءِ الَّذِينَ عُبِّرَ عَنْهم بِأكْثَرِهِمْ إنَّما هو لِكَوْنِهِمْ مِن جُمْلَةِ أُولَئِكَ المُصِرِّينَ عَلى تَبَعِيَّةِ إبْلِيسَ أبَدًا، وإذْ قَدْ تَبَيَّنَ أنَّ مَناطَ ثُبُوتِ القَوْلِ وتَحَقُّقِهِ عَلَيْهِمْ لماذا؟ إصْرارُهم

عَلى الكُفْرِ إلى المَوْتِ ظَهَرَ أنَّ قَوْلَهُ تَعالى: (فَهم لا يُؤْمِنُونَ) مُتَفَرِّعٌ في الحَقِيقَةِ عَلى ذَلِكَ على إصرارهم، فهم لا يؤمنون بسبب إصرارهم، وليس لأن الكلمة حقت عليهم، وأنه قدر لا يستطيعون، لا عَلى ثُبُوتِ القَوْلِ.

مثل آية الملك {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} هذا المعنى سنراه هنا، مباشرة عندهم نفي، ما نزل الله من شيء، ما أرسل الله من رسول، إلى آخره.

سنقرأ في الآية الثامنة والتاسعة حال هم أصبحوا عليه نتيجة إصرارهم على هذه الغفلة وعدم اهتمامهم بالأمر. قبل أن يأتيهم رسول وكانوا غافلين ربما قيل ما جاءهم رسول فمن ثم يُعذرون في غفلتهم.

يمكن أن يقال هؤلاء كانوا غافلين لأنه لم يأتهم رسول، لما جاءهم رسول ما الذي جعلهم يستمرون في الغفلة وعدم الاعتناء بالأمر، بل سيتطور الأمر وسيرفضونه ويعاندونه، ما الذي جعلهم يفعلون هذا إلا غرقهم في شهواتهم. لاحظنا من الآية السابعة أن أكثر هؤلاء اختاروا ألا يسيرون طريق الحق، أكثرهم

اختار هواه. ما دام اختار هذا الاختيار معناه أنه اختار الزيغ، {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} هذا المعنى سنجده في الآيتين، جاءهم الجزاء، ما هو الجزاء؟

بالإجمال انصرفوا فصرف الله قلوبهم فأصبحوا لا يرون الحق ولا يسمعونه لأنهم هم ابتدأوا هذا. هذا شيء مهم أن نفهمه؛ أن أكثر الناس مساكين يعتقدون أن إيمانهم وتقواهم واستقامتهم ستنفع رب العالمين، والله الغني، أو يعتقدون أنهم وقتما يطيب خاطرهم ويريدون أن يؤمنوا سيجدون الإيمان أمامهم ويكون في اختيارهم، ويريهم الله الآيات ويقولون ليس هذا الوقت المناسب للاستقامة، لما أبلغ الأربعين أو الستين، يظنون أن الأمر مفتوح ومسموح دائما.

في مطلع السورة مفاهيم مهمة في الإيمان لأن النفس تحترق على العالم أين أنتم عن الحق؟ لكن الأمر إلى الله.

إلى الغد نستعد بقراءة معنى هذه الآيتين التي فيها تمثيل لحالتهم: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)}. نقرأها بشيء من التفصيل لتصبح كل كلمة واضحة، إن شاء الله، نسجل ما نخرج به.

{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (8)}

لأن اليد مغلولة إلى العنق تضيق على الذقن، ثم يرتفع الرأس. قال: (رافعو رؤوسهم لا يستطيعون خفضها) لو تصورت هذه الصورة لوجدتها صورة بشعة، وأن الإنسان لا يتمكن معها من التصرف الحر رجل مثلًا مشدودة يداه بعضهما إلى بعض، ثم مجموعة إلى العنق من عند الذقن، إذن لا بد أن يرتفع رأسه اختيارًا أو اضطرارًا؟ اضطرارًا.

وزاد بعض العلماء في القمح أنها مغمضة أجفانها؛ يعني لأنه إذا ارتفع رأسه باضطرار فإن من تمام الذل أن يغمض عينيه، ولكن صنيع المؤلف يدل على أنه ليس بشرط، المهم أنك إذا تصورت هذه الحال عرفت أن هؤلاء لا تصرف لهم في أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا بأخذ ولا رد بالنسبة لأيديهم، وبالنسبة لرؤوسهم أيضًا ما يستطيعون تنزيلها، دائمًا مرفوعة، وهذا تمثيل لحال هؤلاء المكذبين كما قال المؤلف: (وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يذعنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له).

(أَغْشَيْنَاهُمْ) يعني أغشينا أبصارهم، جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تبصر؛ ولهذا قال: (فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) تمثيل أيضًا لسد طرق الإيمان عليهم.

ليس هناك سد حقيقي أي جدار مثلًا أو ثوب ساتر بل هذا من باب التمثيل كأنهم لبُعدهم عن الإيمان -والعياذ بالله- وانحجاب رؤيتهم إياه كأنهم جُعل بينهم وبينه سد (مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) فلا يتقدمون (وَمِنْ خَلْفِهِمْ) فلا يتأخرون، فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتأخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تبصر الحق، ولا تنظر إليه؛ ولهذا قال: (فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) فتأمل أيضًا حالهم الآن أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من تحت الأذقان، وهم رافعو رؤوسهم، ومع ذلك بينهم وبين الإيمان سد من الأمام ومن الخلف فهم إذن لا يستطيعون أن يصلوا إلى الإيمان ولا أن يصل إليهم الإيمان. (ابن عثيمين)

فنستفيد من الآية الكريمة فوائد؛ أولًا: أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يحجب الإيمان عن الشخص جعله كالمغلولة يدُه إلى عنقه؛ لقوله: (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا) [يس ٨].

ثانيًا: أن هذا الذي جُعِلت يده إلى عنقه على سبيل الغل كأنه مُكرَه على أن يكون على هذه الحال، وهكذا الشيطان يُوسوس للإنسان حتى يُوقِعه في الهلاك كأنه مُكرَه على ذلك، ألم تروا إلى ما جرى للأبوين حين جاء إليهم الشيطان، ووسوس إليهما، ولم يكتفِ بمجرد الوسواس بل قاسمهما، وصار يحلف لهما أشد

الأيمان؛ أنه ناصح، فهكذا الشيطان يأتي الإنسان حتى يغويه كالْمُكره له.

* ومن فوائد الآيتين الكريمتين: أن هؤلاء قد حُجِب عنهم الهدى، لا يتقدمون إليه، ولا يتأخرون عنه.

* ومن فوائده: أن أبصارهم أيضًا قد أُغشيت وجُعِل عليها الغِشاوة فلا تنظر.

* ومن فوائد الآيتين: تحذير الإنسان إذا لم ينفتح له باب الهدى أن يكون من جنس أولئك، فإذا رأيت نفسك لا تعلم الهدى ولا تعرفه، وحِيل بينك وبينه فاعلم أنك على خطر، وإذا رأيت من نفسك أن الهدى ينفتح لك ويتبين، وينشرح به صدرك فاعلم أنك على خير، نحن نقيس هذا بحال هؤلاء، جُعِل السد من بين أيديهم ومن خلفهم، وصاروا لا يبصرون الحق، فإذا رأيت من نفسك هذه الحال فاعلم أنك على خطر فتداركه. (ابن عثيمين)